ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 01 ماي 2019

الأخطار الثقافيــة للنزعة العلمويــة وحلول الحس المشـترك

روبرت دلفينو
ترجمة: نجيب بوعادل

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

الأخطار الثقافية للنزعة العلموية وحلول الحس المشترك[1]

روبرت دلفينو Delfino .A Robert

ترجمة: **نجيب بوعادل**

1 **Robert A. Delfino, Studia Gilsoniana 3: supplement (2014): 485-496 | ISSN 2300-0066**

الملخص:

يندرج هذا المقال في إطار السجال الدائر حول علاقة العلم بالميتافيزيقا. بدأ الكاتب مقاله بتعريف العلم والنزعة العلموية مع رصد الاختلاف الحاصل بينهما. تناول بعد ذلك، الأخطار الثقافية التي يثيرها الخلط بين مفهومي العلم والنزعة العلموية بأصنافها لدى كل من جماعة العلماء المدافعين عن العلم الطبيعي بمنهجه التجريبي ونزعته المادّية والرافضين لغيره من التخصصات بوضعهم حدا فاصلا لا ينبغي أن تتخطاه المعرفة غير العلمية، واستباحتهم لما يسمونه معرفة غير العلمية بإدخال تغييرات عليها لملاءمتها مع خصوصيات العلم نفسه، ولدى عموم الناس لما يمكن أن يخلفه هذا الاعتقاد من إيمان أعمى بقدرة العلم على حلّ جميع مشكلاتهم. ثالثا، طرح الكاتب مجموعة من الحجج بين من خلالها دواعي رفض النزعة العلموية وحاجة العلم إلى الميتافيزيقا. وقد خلص إلى أنه لا مناص للعلم من المعرفة والتصورات الميتافيزيقية التي لا يمكن تسويغها بالاستناد إلى المنهج العلمي. وقد اقترح إطارا ميتافيزيقيا محايدا لحل مشكلة إبهام الحد الفاصل بين العلم واللاعلم. وفي الأخير، ختم الكاتب مقاله بإعادة إثارة بعض أسئلة وحجج الحس المشترك التي تناولها في عرض مقاله ولخصها لمد يد العون لعموم الناس في تصديهم لأخطار النزعة العلموية.

******

من بإمكانه أن ينكر الإنجازات الهائلة للعلم؟ إن التكنولوجيا التي نعتمد عليها يوميا، والإجراءات الطبية المحافظة على الحياة التي لم تكن متوفرة في الماضي، تعد كلها ثمرة للبحث العلمي. يترك العلم أثرا بالغا في حياتنا، سواء كان البحث العلمي معرفيا يجرى في الجامعات، حيث يحظى العلم باهتمام ودعم كبيرين، أو بشكل أعم في الثقافة، حيث غالبا ما تمجد نتائج العلم وتستهلك بشكل جماعي en masse. من السهل أن نفتخر بالإنجازات العلمية، ذلك أن العديد باتوا ينظرون إلى العلم بوصفه أوج المعرفة الإنسانية. في الواقع، يعتقد بعض العلماء (وحتى بعض الفلاسفة) أن العلم هو الطريقة الوحيدة لاكتساب المعرفة[1]. في الغالب يسمى هذا الموقف «نزعة علموية» **و، كما سأبيّن، يشكل عائقا جديا يحول دون تجديد الثقافة الغربية**.

على الرغم من أن للعلم الحديث إيجابيات كثيرة، فإن الالتباس الحاصل في فهم دوره المناسب في حياتنا الثقافية واليومية يعد خطرا جديا وسببا في قدر كبير من الارتكاس والتشويش الحاصل في الغرب. للأسف، أساء بعض العلماء المشهورين استعمال الاكتشافات العلمية للترويج لنزعة الردّ وللنزعة المادية والعلمانية secularism التي نلفيها اليوم في الغرب. هناك علماء من قبيل ريتشارد دوكينز Richard Dawkins وسام هاريس sam Harris وجّهوا رسالة إلى جمهور قرّائهم تفيد أنه ينبغي الرجوع إلى العلم لمعالجة القضايا المرتبطة بالأخلاقيات وبوجود الله.[2] وعلى هذا النحو، بات العلماء بالنسبة إلى الكثيرين، رجال الدين الجدد الأعلى مرتبة في زماننا، مستبدلين علماء الدين theologians والفلاسفة والشعراء الذين عاشوا في الأزمنة السابقة. لذلكم، سأبيّن في ما بعد أن هذا الوضع مخيف ويستدعي تجديدا ثقافيا.

سأبدأ أولا بتقديم تعريف «للعلم» و«للنزعة العلموية»، ثانيا سأتطرق إلى بعض الأخطار الثقافية للنزعة العلموية، وسأقدم ثالثا حججا أبين بها لماذا ينبغي رفض النزعة العلمية، ولماذا يحتاج العلم إلى الميتافيزيقا. رابعا وأخيرا، سأختم بالإشارة إلى كيف أن بعض القضايا والأسئلة التي أثرتها في الأجزاء السابقة بالإمكان ملاءمتها لمساعدة عموم الناس في فهم حدود العلم وأخطار النزعة العلمية.

1 أشار كيم إلى أن النزعة الطبيعية تقع في قلب النقاش الدائر في الفلسفة التحليلية وأن جوهر النزعة الطبيعية "يبدو على النحو الآتي: إن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد لاكتساب المعرفة أو المعلومات الموثوق بها في جميع المجالات بما في ذلك الفلسفة."

Jaegwon Kim, "The American Origins of Philosophical Naturalism," *Journal of Philosophical Research* 28: supplement (2003): 87.

2 See Richard Dawkins, *The God Delusion* (New York: Houghton Mifflin Company, 2006), and Sam Harris, *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values*, (New York: Free Press, 2010).

العلم ضد النزعة العلمية

للأسف، سعى بعض فلاسفة العلم جاهدين لتحقيق إجماع حول تعريف مقبول للعلم. في واقع الأمر بين بعض فلاسفة العلم مثل «لاري لودن» Larry Laudan أن جميع المحاولات المعروفة لتمييز العلم عن اللاعلم باءت بالفشل[3]. غير أنّي أعتقد أن مفتاح فهم الفرق بين العلوم الحديثة، مثل البيولوجيا والفيزياء من ناحية، وتخصّصات أخرى مثل الفلسفة وعلم اللاهوت theology من ناحية أخرى، يكمن في اختلاف موضوع ومناهج بحث كل منهما methodology. يستعمل العلم الحديث الاستدلال الاستنباطي الافتراضي والمنهج التجريبي الذي كان غاليلي قد وضع لبناتهما الأولتين بهدف دراسة أنواع التغيرات المختلفة التي تطرأ في العالم الطبيعي. فعلى الرغم من أن بعض التجارب سبق أن أجريت في العصر اليوناني القديم وخلال العصور الوسطى، فإنها لم تبلغ مبلغ السمة الأساس بالنسبة إلى العلم إلا مع الثورة العلمية في القرن السابع عشر.

عموما، يكون المنهج العلمي على النحو الآتي. في البداية يُصاغ افتراض حول الكيفية التي تحدث بها الأشياء في العالم. ثانيا، يستنبط تنبؤ (أو تنبؤات) انطلاقا من الفرض. ثالثا، تنجز الاختبارات للتأكد مما إذا كانت التجربة والملاحظة تثبتان هذه التنبؤات. يفضل العلماء الفروض والنظريات التي يكون إثباتها قويا، وينزعون إلى التخلي عن الفروض والنظريات التي دون ذلك. لكن لا يمكن استعمال الاستدلال الفرضي الاستنباطي the hypothetico-deductive reasoning كما بين ذلك «كارل بوبر» Karl Popper على وجه التحديد، لإثبات صدق فرض أو نظرية إثباتا نهائيا.[4] ففي الوقت الذي لا يضع المنهج العلمي الدليل في حسبانه، يؤكّد بوبر أن هذا المنهج يأخذ التكذيب falsification بعين الاعتبار. حازت فيزياء «نيوتن» إثباتا قويا طوال ثلاثة قرون، إلا أن نسبية «إنشتاين» كذبتها في الأخير. وعلى الرغم من ذلك، بقي جزء كبير من فيزياء نيوتن قادرا على التجسد في فيزياء «إنشتاين»، كما يعتقد فلاسفة العلم الذين يصفون أنفسهم بالواقعيين أن النظريات المثبتة إثباتا قويا تدنو من الحقيقة إذا ما عجزت عن بلوغها كاملة.

أحصت المناقشة أعلاه بعض الحدود التي لا ينبغي أن يتخطاها المنهج العلمي، وبالتالي العلوم الحديثة. أكد «بوبر» على أن هناك حدّا آخر ذا أهمية، ويفيد أنه إذا كان الفرض أو النظرية غير قابل للاختبار التجريبي، فإنه لا يكون فرضا علميا. ستكتسي هذه الفكرة أهمية في نقاشنا للنزعة العلموية أدناه. فإذا كان

3 Larry Laudan, "The Demise of the Demarcation Problem," in *But Is It Science?: The Philosophical Question in the Creation/Evolution Controversy* (Amherst, NY: Prometheus Books, 1996), 337–350.

4 يبين "بوبر" أنه "لا يمكن على الإطلاق إثبات قضية ما إثباتا نهائيا بإثبات بعض نتائجها".

Karl Popper, *The Logic of Scientific Discovery* (New York: Harper, 1959), 259. See also, Karl Popper, *Conjectures and Refutations* (New York: Harper, 1963).

هناك ادعاء باسم العلم لا يمكن اختباره بالاستناد إلى مناهج العلم، فإن ما ينتج عن ذلك الادعاء يكف عن كونه علما. وكما سنرى فيما بعد، فإن النزعة المادية الميتافيزيقية metaphysical materialism التي تتخفى بوصفها علما تعد واحدة من الأخطار الثقافية للنزعة العلموية.

حدد «مايكل ستنمارك» Mikael stenmark أصنافا مختلفة للنزعة العلموية بما في ذلك النزعة العلموية المعرفية epistemic scientism والنزعة العلموية الأنطولوجية onthological scientism، والنزعة العلموية الأكسيولوجية axiological scientism، والنزعة العلموية الوجودية.[5] إن تناول هذه المفاهيم بشكل مستفيض سيتطلّب حيزا أكبر، لذلك سأركّز بالأساس على المفهومين الأول والثاني لأنهما، كما يُزعم، أبلغ أصناف النزعة العلموية أهمية وأكثرها شيوعا، وسأعقب على الأصناف الأخرى باقتضاب.

سنبدأ بالنزعة العلموية المعرفية epistemic scientism بوصفها تصورا يفيد أن «الواقع الوحيد الذي بإمكاننا الإحاطة به إحاطة تامة هو واقع بإمكان العلم الوصول إليه.»[6] يسعى هذا الصنف من النزعة العلموية إلى رد المعرفة كلها إلى المعرفة العلمية. ينبغي في إطار هذا التصور، إما استيعاب عدد من التخصصات الأخرى، مثل الفلسفة والثيولوجيا، في العلم وبالتالي إخضاعها لتغييرات مهمة، أو إنكار صفة المعرفة عنها. وقد تبنى العالم البيولوجي «إدوارد أ. ولسون» Edward O. Wilson هذه الفكرة في كتابه «Consilience: The Unity of knowledge»[7]

وعلى الرغم من أن النزعة العلموية المعرفية تقيد المعرفة الإنسانية، إلا أنها تترك الباب مفتوحا لإمكان وجود وقائع realities لا يستطيع العلم اكتشافها، كالإله مثلا. بخلاف ذلك، تضع النزعة العلموية الأنطولوجية قيودا على ما هو موجود وجودا موضوعيا، لأنها تفترض أن «الحقيقة الوحيدة الموجودة هي حقيقة بإمكان العلم الوصول إليها.»[8] أشار «ستنمارك» Stenmark إلى أن قول «كارل سايكن» Carl Sagan المشهور أن «الكون هو كل ما هو موجود أو ما كان على الدوام موجودا أو ما سيوجد دائما.» هو مثال للنزعة العلموية الأنطولوجية. مرد ذلك هو أن رفع هذا الادعاء يقتضي أن يفترض عالم مثل «سايكن» Sagan أن العلم يزودنا بمعرفة شاملة عن الواقع. فإذا كان العلم لا يمنحنا معرفة شاملة بالواقع، أو إذا كنا

5 Mikael Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion* (Aldershort: Ashgate, 2001), 1–17.

6 Id., 4.

7 Edward O. Wilson, *Consilience: The Unity of Knowledge* (New York: Vintage, 1999)

أقر ولسون في الفصل الثاني من كتابه بشكل صريح بذنبه المتمثل في انحيازه للنزعة العلموية، وقال أن من بين أهدافه تحويل "أكبر قدر ممكن من الفلسفة إلى علم" Id., 11–12.

8 Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion*, 8.

غير متيقنين من أنه يفعل ذلك، فلن يكون لدينا مسوغ لاستخلاص نتيجة مثل التي بلغها «ساكان» أعلاه. سأعود إلى هذه الفكرة فيما بعد.

إن الصنف الآتي من النزعة العلموية الذي ناقشه ستنمارك يسميه النزعة العلموية القيمية، axiological scientism، ويعرفها بوصفها تصورا يفيد أن «العلم وحده قادر على تفسير الأخلاق والقيام مقام الأخلاقيات التقليدية.[9] أخيرا، هناك النزعة العلموية الوجودية. وتعني بالنسبة إلى «ماري مدجلي» Mary Midgley فكرة الخلاص بواسطة العلم وحده» على الرغم من أن «ستنمارك» يعرفها بوصفها اعتقادا أن «العلم وحده قادر على تفسير الدين والحلول محله.»[10]

الأخطار الثقافية للنزعة العلموية

إن فهم الأخطار الثقافية للنزعة العلموية لن يكون أمرا صعبا. فلنبدأ أولا بفحص أخطار النزعة العلموية الأنطولوجية. يبين التاريخ أن بعض العلماء، الذين يُنسبون إلى النزعة العلموية الأنطولوجية، سواء كان انتسابهم لها بشكل واع أو غير واع، ادعوا أن الاكتشافات العلمية تنطوي على النزعة المادية الميتافيزيقية. يذهب هذا التصور إلى أنه لا توجد سوى المادة والطاقة. يؤدي هذا التصور بطبيعة الحال إلى جملة من المشكلات الخطيرة. بداية، يقود هذا التصور إلى موت الإله the loss of God، وبالتالي إلى فقدان الأمل في حياة أخروية وفي عدالة عليا مطلقة، وفي معنى قطعي. ثانيا، تؤدي النزعة المادية إلى فهم الطبيعة الإنسانية فهما يجردها من الحرية والكرامة. لنتأمل ملاحظات «وليام ب. بروفاين» William B. Provine، بوصفه عالما بيولوجيا ومؤرخا للعلم، قرابة ربع قرن مضى:

يشير العلم الحديث على نحو صريح إلى أن العالم ينتظم انتظاما صارما في ارتباط بالمبادئ أو المصادفة الحتمية. فليست هناك بتاتا مبادئ غرضية في الطبيعة. لا توجد آلهة كما لا توجد قوى محدثة يمكن كشفها عقلانيا ... ثانيا، ليست هناك قوانين أخلاق أو أخلاقيات. ثالثا، إن الكائنات الإنسانية عبارة عن آلات معقدة بشكل عجيب ... لابد أن نخلص أنه عندما نموت، فإننا نموت وتلك هي نهايتنا. فليس هناك أمل في حياة أبدية. إن الكون لا يكترث لأمرنا، وبالتالي، ليس هناك معنى نهائي بالنسبة إلى البشر.[11]

9 Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion,* 12.

10 Mary Midgley, *Science as Salvation* (London: Routledge, 1992), 37; Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion*, 14.

11 William B. Provine, "Progress in Evolution and Meaning in Life" in *Evolutionary Progress*, ed. Matthew H. Nitecki (Chicago: University of Chicago Press, 1988), 64–66; 70.

ومن نفس المنظور، لنتأمل تعليقات جيري كوين Jerry Coyne، بروفسور علم البيولوجيا، التي نشرها في السنتين الفارطتين في مجلة التعليم العالي *The Chronicle of Higher Education*:

تستبعد قوانين الفيزياء، على نحو بسيط وحاسم، الإرادة الحرة. تنتج القرارات عن دفعات كهربائية ومواد كيميائية ذات أساس جزيئي تنقلها خلية دماغية إلى خلية أخرى. ينبغي أن تستجيب هذه الجزيئات لقوانين الفيزياء. لذلك، فمخرجات دماغنا تمليها تلك القوانين. وعليه، ما هي النتائج المترتبة عن إدراكنا أن الحتمية الفيزيائية تبطل قدرتنا على الاختيار الحر؟ ... إن ما يتأثر تأثرا بالغا هو تصورنا للواجب الأخلاقي الذي ينبغي التخلي عنه إلى جانب فكرة الإرادة الحرة.[12]

أخيرا، لنتأمل تعليقات عالم النفس «ستيفن بينكر» Steven Pinker الذي أيد النزعة العلموية القيمية في السنة الماضية، عندما كان يغازل النزعة العلمية الوجودية.

إن النظرة إلى العالم worldview التي توجه القيم الأخلاقية والروحية لشخص متعلم اليوم هي نفسها التي يقدمها لنا العلم. فبكشف تجرد القوانين التي تحكم الكون من أي غرض، تدفعنا وقائع العلم دفعا إلى تحمل مسؤولية رفاهنا ونوعنا species، وكوننا وكوكبنا. وللسبب نفسه، تحط تلك الوقائع من شأن أي نسق أخلاقي أو سياسي يستند إلى قوى، أو استشراقات، أو أقدار، أو جدل، أو نضالات أو عصور مسيحية روحية ذات طابع روحي messianic ages. وفي ارتباط بعدد محدود من القناعات الثابتة- ككوننا نعطي قيمة لرفاهنا، وأننا كائنات اجتماعية نعتدي على بعضنا بعض، وبإمكاننا أن نتفاوض حول تشريع للسلوك- تدافع الوقائع العلمية عن أخلاق حصيفة تتقيد بمبادئ تزيد في ازدهار البشر والكائنات الأخرى القادرة على إدراك الأشياء بحواسها. إن هذه النزعة الإنسانية المتصلة اتصالا وثيقا بالفهم العلمي للعالم قد صارت أخلاقا عملية في الديمقراطيات الحديثة، والمنظمات الدولية، والديانات التحريرية liberalizing religions، وتحدد وعودها غير الموفى بها الواجبات الأخلاقية التي نواجهها اليوم.[13]

بطبيعة الحال، من الممكن أن نتبنى النزعة العلموية المعرفية بمفردها، ونرفض أصناف النزعة العلموية الأخرى التي أشير إليها أعلاه. بيد أن الأخطار الثقافية الناجمة عن تبني النزعة العلموية المعرفية ليست بأفضل حال. وكما أشرت سابقا، ينبغي بمقتضى النزعة العلموية المعرفية، إما استيعاب تخصصات أخرى، مثل الفلسفة وعلم الأديان، في العلم وإخضاعها بذلك لتغييرات مهمة، أو نزع صفة المعرفة عنها.

12 Jerry A. Coyne, "You Don't Have Free Will," *The Chronicle of Higher Education*, March 18, 2012 [http://chronicle.com/article/Jerry–A–Coyne/131165/, accessed on 18.08.2014].

13 Steven Pinker, "Science is not Your Enemy" *New Republic*, August 6, 2013 [http://www.newrepublic.com/article/114127/science–not–enemy–humanities, accessed on 18.08.2014].

ينجم عن ذلك اضطراب في هرمية تخصصات المعرفة. وسيؤدي ذلك، مثلا، إما إلى استبعاد الميتافيزيقا أو ردها إلى شيء آخر مختلف عنها. وكحالة في صميم الموضوع، لنتأمل موقف كل من «جيمس ليدمان» James Ladyman و«دون راس» Don Ross بوصفهما مدافعين متباهيين عن النزعة العلموية. يبين كل واحد منهما أن الميتافيزيقا ينبغي أن تكون مساعدة للعلوم الحديثة، معرفين الميتافيزيقا بوصفها «مشروعا يوضح توضيحا نقديا شبكات التعالق القائمة بين العلوم».[14]

للأسف، إن إلغاء عدد من التخصصات المختلفة أو ردها إلى العلم يعوق أي فهم صحيح للواقع ويمنع بلوغ الحكمة. يبين **مورتيمر ج. أدلر** Mortimer J. Adler أنه عندما لا يكون بين العلم والفلسفة والدين «ما يميزها عن بعضها على نحو ملائم، [وإذا لم تكن مترابطة ببعضها بعض على نحو صحيح]، فإنه ينتج عن ذلك حتما اضطراب ثقافي كالذي يحدث في الأزمنة الحديثة.»[15] لاشك في أن المدافعين عن النزعة العلموية لا ينظرون إلى ذلك على هذا النحو. فباقتباس عبارة البابا بنديكت XVI إنهم يفهمون النزعة العلموية بوصفها «أساسا صحيحا لتحقيق فهم متنور للعالم».[16] لكن هل يمكن أن تكون النزعة العلموية أساسا صحيحا لفهم متنوّر للعالم؟ سأبين أنها ليست كذلك بالبرهان على عدم إمكان الدفاع العقلاني عن كل من النزعة العلموية المعرفية والنزعة العلمية الأنطولوجية.

النزعة العلمية ومشكلاتها

دعونا نبدأ بالنزعة العلموية الأنطولوجية بوصفها تصورا يفيد أن «الحقيقة الوحيدة التي توجد هي حقيقة بإمكان العلم الوصول إليها». لقد أشرت في السابق أنه إذا كان العلم لا يزودنا بمعرفة كاملة عن الواقع، أو إذا كنا غير متيقنين من أنه يقوم بذلك، فإن النزعة العلموية الأنطولوجية تكون آنذاك غير مسوغة. لذلك، دعوني أرفع الأسئلة الآتية: هل نعلم علم اليقين أن العلم يزودنا بالفعل بمعرفة شاملة عن العالم أو بإمكانه القيام بذلك؟ أم أن ذلك لا يعدو كونه افتراضا؟ فإذا كان ذلك افتراضا، سيكون من الواضح آنذاك أنه لا يوجد ما يضمن أنه صادق. وإذا كان يُزعم أنه ليس افتراضا، ينبغي أن تكون المعرفة به متاحة للوسائل العلمية آنذاك، لأن النزعة العلمية الأنطولوجية تستلزم النزعة العلمية المعرفية. للأسف، لا يبدو ممكنا، بالنسبة إلى

14 James Ladyman and Don Ross, with David Spurrett and John Collier, *Everything Must Go: Metaphysics Na - uralized* (Oxford: Oxford University Press, 2007), 28. Chapter one of this book is titled “In Defence of Sci- entism.”

15 Mortimer J. Adler, “God and the Professors,” *Philosophy is Everybody’s Business* 9: 3 (2003): 8.

16 This was delivered in 1999 at a lecture at the Sorbonne in Paris, and was later published in the book *Truth and Tolerance: Christian Belief And World Religions* (San Francisco: Ignatius Press, 2004), 178.

مؤيدي النزعة العلموية الأنطولوجية، الحسم عن طريق التجربة العلمية أن المنهج العلمي بإمكانه أن يزودنا بمعرفة شاملة عن العالم. يناقش «ستنمارك» هذه المشكلة بالتفصيل:

كيف نبني تجربة علمية نبرهن بها أن العلم أو أي منهج علمي بعينه يقدم تفسيرا شاملا للواقع؟ لا أرى أن هناك سبيلا إلى تحقيق ذلك بطريقة لا تستجدي السؤال. إن ما نسعى إلى معرفته هو ما إذا كان العلم يضع حدودا للواقع. تكمن المشكلة في أنه مادمنا لا نستطيع الظفر بمعرفة حول الواقع إلا باستعمال المناهج العلمية... ينبغي استعمال تلك المناهج التي يعد مجالها موضوع نقاش لتحديد مجال تلك المناهج نفسها. فلو استعملنا مناهج غير علمية، لما تمكنا، قط، من معرفة الجواب على سؤالنا... إننا بذلك مدفوعون للإقرار إما بأننا لا نستطيع تفادي الجدال بالدور circle، أو القبول بأن [النزعة العلموية الأنطولوجية] هي من قبيل الخرافة أو الإيمان الأعمى.[17]

ويعد هذا مشكلة حقيقية بالنسبة إلى النزعة العلموية الأنطولوجية. وقد أضحى واضحا، على نحو مفارق، أن النزعة العلموية الأنطولوجية لم تعد تصورا علميا، كما أن وجهات النظر التي تتبنى النزعة العلموية الأنطولوجية، كتصور «ساكان» للواقع، ليست علمية كذلك. بدلا من ذلك، إنها تصورات ميتافيزيقية قد تكون صادقة وقد لا تكون. وبما أن المنهج العلمي لا يستعمل لتحديد ما إذا كانت هذه التصورات صادقة أم لا، فلابد أن يسعى تخصص آخر غير علمي، أي الميتافيزيقا، إلى القيام بذلك. بيد أن هذا لا يتأتى إلا إذا رفضنا كلا من النزعة العلموية الأنطولوجية والنزعة العلموية المعرفية. ينبغي رفض النزعة العلموية المعرفية، لأنها تنزع وضع المعرفة عن الميتافيزيقا.

ومع ذلك، هناك خيار آخر. يستطيع العلماء رفض النزعة العلموية الأنطولوجية والميتافيزيقا مع المضي قدما في قبول النزعة العلموية المعرفية. بطبيعة الحال، إن العلماء الذين يتبنون هذا الخيار ينبغي أن يمتنعوا، بخلاف «ساكان»، عن اتخاذ أي مواقف ميتافيزيقية. يدفعنا هذا إلى طرح سؤال آخر: هل العودة إلى النزعة العلموية المعرفية قابلة للتسويغ؟ يقدم «ستنمارك» سببين لعدم إمكان تسويغ ذلك.

بداية، سعى إلى إقامة الحجة على أن النزعة العلموية المعرفية تدحض نفسها بنفسها.[18] ويرجع ذلك، من جديد، إلى أنه لا يمكننا استعمال التجريب العلمي لمعرفة «أن الواقع الوحيد الذي يمكن أن نلم به إلماما كاملا هو واقع بمستطاع العلم الولوج فيه.» وبذلك تكون النزعة العلموية المعرفية قد قوضت نفسها بنفسها. ثانيا، يشير «ستنمارك» إلى أنه إذا كنا قادرين على معرفة بعض الأشياء معرفة مستقلة عن العلم، تكون

17 Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion*, 22–23.

18 Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion*, 32.

آنذاك النزعة العلموية المعرفية زائفة. يقدم ستنمارك حججا مفصلة، لا أستطيع عرضها، يبين من خلالها أن هناك بالفعل أشياء نعلمها بمعزل عن العلم. وتتضمن الذاكرة، والمعرفة الملاحظة، والمعرفة الاستبطانية، والمعرفة اللغوية، والمعرفة القصدية.[19] علاوة على ذلك، بين ستنمارك أن نشاط العلم نفسه يقتضي هذه الأصناف من المعرفة التي تكتسي أهمية كبيرة.[20]

وعلى الرغم من أن حجج «ستنمارك» المعروضة أعلاه تكفي لتقويض النزعة العلموية المعرفية، فإنني أرغب في صوغ حجة إضافية أبين بها أن العلم يحتاج إلى الميتافيزيقا. إن المفتاح إلى مثل هذه المحاججة يمكن أن نلفيه في أن العلم نفسه يقتضي المعرفة الميتافيزيقية والتصورات الميتافيزيقية التي لا ترد إلى العلم. فلنعاين بعضا من هذه الاقتضاءات.

ضرورة الميتافيزيقا

تعود إحدى الأسباب التي تجعل العلماء غير قادرين على التخلص من الميتافيزيقا إلى أن نشاط العلم نفسه يقتضي بعض المفاهيم والمبادئ الميتافيزيقية. يفسر فيلسوف العلم «ديل راتسش» Del Ratzsch أنه:

لا يمكن القيام ببحث علمي ذي أهمية دون اقتضاءات تهم، مثلا، أنواع المفاهيم المشروعة عقلانيا، والمعايير التقويمية التي ينبغي أن تستجيب لها النظريات، وإجراءات اتخاذ القرار المسوغة عندما تتعارض المعايير، وكذلك إجابات على الأسئلة العميقة التي تهم مظاهر سمات الواقع، وطبيعة الحقيقة والمعرفة وسماتهما، وموضوع العلم والغرض منه، والقدرات الإنسانية الحسية والمعرفية والاستدلالية وغيرها من المواضيع. [وعلى هذا الأساس] لا يمكن ممارسة العلم بمعزل عن الرصيد الأساسي للمبادئ والاقتضاءات غير التجريبية.[21]

يبين «راتسش» Ratzsch أن بعض المبادئ الميتافيزيقية التي يتبناها العلماء تكون عرضة للخطر من الناحية التجريبية، وبالتالي يمكن رفضها على ضوء بعض الاكتشافات. إنه يناقش مثلا كيف أن المبدأ الفلسفي القائل بأن التفسيرات الطبيعية ينبغي أن تكون حتمية، قد رُفض في النهاية عند اكتشاف فيزياء الكم.[22]

19 Stenmark, *Scientism: Science, Ethics and Religion*,26-31

20 Id., 18–33.

21 Del Ratzsch, *Nature, Design, and Science: The Status of Design in Natural Science* (Albany, NY: State Unive - sity of New York Press, 2001), 82.

22 Id., 110.

أتفق مع «راتسش» في هذه الفكرة، بيد أنني سأضيف أن هناك على الأقل بعض من المبادئ والمفاهيم التي هي بمثابة اقتضاءات ضرورية للعلم، ولذلك لا يمكن رفضها إلا إذا كنا نسعى إلى رفض العلم نفسه.

فبصوغ هذا الادعاء، ينبغي أن أشير إلى أني أقتضي تصورا واقعيا للعلم، لاسيما الفكرة القائلة بأن الهدف من العلم هو اكتشاف الحقائق الموضوعية حول الواقع، على الأقل بشكل تقريبي، حيث تفهم الحقيقة كونها مستقلة عن أذهاننا.[23] وكأمثلة على اقتضاءات العلم الضرورية، سأعرض مبدأ عدم التناقض، ومفهوم الصدق اللذين سنعاينهما لاحقا.

يرى أرسطو أن مبدأ عدم التناقض هو في النهاية مبدأ ميتافيزيقي، وقد صاغه على النحو الآتي: «يستحيل أن يكون الشيء موجودا وغير موجود في الوقت نفسه.»[24] فإذا كان العلماء يعتقدون أن مبدأ عدم التناقض الميتافيزيقي غير صادق، سينتهي بنا الأمر إلى العبث. وسيكون كذلك، لأن رفض مبدأ عدم التناقض يعني أن الشيء يكون ولا يكون موجودا في الوقت نفسه. وهكذا مثلا، يمكن أن يكون عمر الأرض هو 10,000 سنة و4.5 مليار سنة في آن واحد بالنسبة إلى الملاحظ نفسه. وبناء على هذه الشروط، يكون الواقع غريبا، وسأبين أنه لم يعد قابلا للبحث العلمي.

لبيان ذلك، دعونا نتدبر في تصور ميتافيزيقي آخر يقتضيه العلم، وأعني بذلك مفهوم الصدق. فإذا كان الصدق هو مطابقة قضية ما للواقع، والواقع يوجد على نحو مناقض، آنذاك سيكون هناك صدق مزدوج. إذا كان، مثلا، عمر كوكب الأرض عشرة آلاف سنة وأربع مليارات ونصف سنة في الوقت نفسه، سيكون صادقا القول أن عمر كوكب الأرض هو عشرة آلاف سنة، وسيكون صادقا أيضا أن عمر كوكب الأرض هو أربع مليارات ونصف سنة. بإمكاننا أن نرفض أن الصدق هو مطابقة قضية ما للواقع، إلا أن ذلك قد يقودنا، كما يبدو، إلى صنف من أصناف النزعة النسبية.

وكما هو مبين أعلاه، إن نشاط العلم، عندما يفهم على الأقل على نحو واقعي، يقتضي أساسا foundation علميا من نوع خاص. إن عناصر هذا الأساس مثل مبدأ التناقض ومفهوم الصدق لا يمكن فحصها أو تسويغها بواسطة المنهج العلمي. وبناء على ذلك، سيكون من الضروري دراستها في تخصص آخر، لاسيما الفلسفة وبالأخص الميتافيزيقا. وتعد هذه الدراسة مهمة إلى حد أن العلماء يسعون إلى الاعتقاد

23 كانت النزعة الواقعية بصورة أو بأخرى، في الجزء الأكبر من التاريخ، التصور المهيمن في العلم، وتعد حاليا التصور المهيمن لدى فلاسفة العلم. أنظر, Frederick Suppe, *The Structure of Scientific Theories* (Urbana: University of Illinois Press, 2nd ed., 1977), 652, 716–728.

Richard McKeon 24 Aristotle, *Metaphysics,* 1006a2–3, trans. W. D. Ross, in *The Basic Works of Aristotle*, ed. (New York: Random House, 1941), 737.

أن نظرياتهم صادقة، أو على الأقل صادقة على نحو تقريبي، وللرد على الحملات التي قادها المابعد حداثيون على العلم، والتي تصدت لوضعه بوصفه معرفة.

وعليه، يحتاج العلم الحديث إلى الميتافيزيقا، لأن أي تصور واقعي للعلم يتطلب أساسا فلسفيا، والذي ينبغي أن يكون جزء منه ميتافيزيقيا. وبما أنه لا مفر من الميتافيزيقا، ينبغي أن ينخرط العلماء والميتافيزيقيون في عمل متداخل الاختصاصات. ولكي يحدث ذلك، ينبغي أن يتغير المناخ السائد. لقد حاولت في موضع آخر أن أبرهن على ضرورة توفير إطار ميتافيزيقي محايد يضم كلا من العلماء وأعضاء من تخصصات أخرى لإجراء بحوثهم[25]. وتتحدد أهداف هذا الإطار في توضيح الروابط القائمة بين التخصصات المختلفة، والحفاظ على استقلالية كل تخصص، والحيلولة دون خروج التخصصات عن حدودها، وتسهيل العمل المشترك بين التخصصات. ويسمى جزء من الإطار الذي أعددته **بمبدأ النزعة المحايدة المنهجية** the principle of methodological neutralism. تأتي إحدى مظاهر هذا المبدأ على النحو الآتي. إذا لم تستطع مناهج العلم معالجة موضوع ما، ينبغي أن يبقى العلماء آنذاك محايدين، ويحيلوه إلى تخصص (أو تخصصات) قادرة على معالجته.

يساعد هذا المبدأ المنهجي، إلى جانب منهج، وموضوع، ومنظور، وهدف التخصصات المختلفة، في توضيح الحدود الفاصلة بين التخصصات. وينبغي أن يؤدي توضيح الحدود الفاصلة إلى خفض بعض التوتر القائم بين العلم والتخصصات الأخرى مادام قدر كبير من هذا التوتر ينشأ عندما تجاوز التخصصات حدودها.

حلول الحس المشترك

سأختم إذن بتلخيص بعض أسئلة الحس المشترك وحججه التي يمكن توجيهها إلى الرأي العمومي بهدف التصدي للنزعة العلموية؛ فبعد تفسير الخطوط العريضة للمنهج العلمي للرأي العمومي، ينبغي إثارة النقاط السبع الآتية.

1- أليس من العبث القول إن العلوم الحديثة وحدها هي التي تزودنا بالمعرفة؟ إن العلوم الحديثة لم تظهر إلا في القرن السابع عشر، أو ربما قبل ذلك بقليل. ألم تكن الكائنات الإنسانية تملك بالفعل معرفة سابقة عن ذلك التاريخ؟

25 Robert A. Delfino, "Scientific Naturalism and the Need for a Neutral Metaphysical Framework," in *Science and Faith within Reason: Reality, Creation, Life and Design*, ed. Jaume Navarro (Surrey, England: Ashgate, 2011), 43–59.

2- أليس صحيحا أن الكائنات الإنسانية كانت ولا تزال تملك معرفة مستقلة عن العلم الحديث؟ تأملوا، كأمثلة على ذلك، معرفتكم الملاحظة، ومعرفتكم الاستبطانية، ومعرفتكم اللغوية، ومعرفتكم القصدية.

3- أليس صحيحا أنه لكي يكون العلم الحديث ممكنا، يستدعي منا أن نملك أصنافا مختلفة من المعرفة اللاعلمية، التي عرض البعض منها أعلاه؟

4- ألا يمكن أيضا ممارسة العلم دون معرفة ميتافيزيقية، كمبدأ عدم التناقض، ومفهوم الصدق؟

5- أليس من العبث الاعتقاد أنه إذا لم يتمكن العلم من اكتشاف شيء ما، فلا وجود له؟ فلكي يكون هذا الاستنتاج منتجا valid سيتحتم على العلم أن يزودنا بمعرفة شاملة عن الواقع.

6- بيد أنه لا يمكن بناء تجربة علمية لإثبات أن العلم يزودنا بمعرفة شاملة عن الواقع، أو أن العلم وحده يزودنا بالمعرفة. وبما أن النزعة العلموية، بوصفها تصورا، لا يتم اختبارها بمناهج العلم، فإنها ليست تصورا علميا، لذلك فهي تدحض نفسها بنفسها.

7- لذلك، أدعوكم إلى التفكير مليا فيما يلفق للعلم من ادعاءات. إن ما يتم ادعاؤه، أحيانا، يتجاوز ما بإمكان مناهج العلم أن تقتضيه.[26]

26 يطيب لي أن أشكر Peter A. Redpath على تعليقاته على المسودة الأولى لهذا المقال، كما أود أن أشكر Anthony J. Delfino على مساعدته وتشجيعه لي.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019